﴿ الباب الرابع والعشرون ﴾

(فى ذكر عمارة القبور)

وقد اشتغل بعض أهل زماننا ممن أصيب بموت أقاربه، ببناء قبورهم وتبليطها وتجصيصها ؛ وبناء التربة المحتوية على القبور وتحسينها وتزويقها ، ويزرعونها أنواع الرياحين ، ويصعدون اليها فى الغالب كل يوم خميس بالاهل والأقارب وملاذ الأطعمة وأنواعها، ويظنون أن ذلك قربة وطاعة الى الله عز وجل ،وربما يقولون :فى هذه الأمور تسلية لنا عن الموتى. وما علموا أن هذه الأمور من البدع المكروهة المنهى عنها ، وأن من البدع تعظيم القبور وتبليطها وتجصيصها ، وبناء القباب عليها ،كل هذا من البدع الذى كرهه السلف والعلماء ، وهو مخالف لسنة رسول الله ﷺ وقد روى أبو داود والترمذى من حديث جابر : إن النبى ﷺ نهى أن يجصص القبر ، وأن يبنى عليه . زاد الترمذى وأن يكتب عليه وأن يوطا ، وحسنه وصححه ولفظ أبى داود : أن يقعد عليه ، وقد بعث النبى ﷺ على بن أبى طالب رضى الله عنه أن لا يدع تمثالا الا طمسه ،ولا قبرا مشرفا الا سواه، وعن أبى الهياج الاسدى قال قال لى على : ألا ابعثك على مابعثنى عليه رسول الله ﷺ ؟إذهب فلا تدع تمثالا الا طمسته ، ولا قبرا مشرفا الا سويته رواه أبو داود والترمذى. فالسنة تسوية هذه القبور المشرفة المحجرة المطينة المجصصة ، وكذلك نهى رسول الله ﷺ أن يكتب عليها، ونهى عن اتخاذها مساجد ،و إيقاد السرج عليها، واشتد نهيه ﷺ حتى لعن فاعل ذلك ، ونهى عن الصلاة الى القبور، حتى نهى أمته أن يتخذوا قبره مسجداً أو عيدا . وكان رسول الله ﷺ يعظ الناس عند القبور ، كما ثبت ذلك فى صحيح البخارى ومسلم من حديث على رضى الله عنه قال : كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد ، فأتانا رسول الله ﷺ فجلس وجلسنا حوله، ومعه مخصرة ، فنكس

وجعل ينكت بمخصرته . وقال : « مامنكم من أحد الا قد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة » فقالوا: يارسول الله أفلا نتكل على كتابنا ؟ فقال « اعملوا وسددوا وقاربوا وكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة » ثم قرأ هذه الآية (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) وفى الصحيح أيضاً إنه كان يقف عند الدفن ويقول : « استغفروا لاخيكم واسألوا له التثبيت فانه الآن يسأل » .

﴿ فصل ﴾

وليعلم أن عمارة الأحياء والأموات ليست من خارج ، فان النبى ﷺ . قال: « إن الله لا ينظر الى صوركم ولا الى لباسكم ولكن ينظر الى قلوبكم » فعمارة القلب هى العمارة النافعة ، والميت فى قبره كذلك ، ليست بزخرفة القبر ولا التربة ولا تزويقها، و إنما العمارة بالصدقة عن ساكنها وأفعال القرب عنه ، وقد تقدم هذا فى الباب الذى قبله . أما علم أن القبر الذى يزخرف ظاهره إن باطنه مظلم ضيق ، وقد طرح فيه من هو من أحب أقاربه اليه فريداً وحيداً ، مستوحشاً من غير وسادة ولا تمهيد ، وقد باشر الثرى وواجه البلا ، وترك دنياه بالورى ، ونبذ منها ما كان بيده بالعرا ، مع حبيب تركه ، وقرين أسلمه ، فكل ماذكرته لك يا أخي يفطم النفوس عن الشهوات ، وتعلم أن عمارة البواطن أولى من عمارة الظواهر، وهى العمارة النافعة فى يوم القارعة ، فاذا بحثت عن الحقيقة ، ونظرت بعين البصيرة علمت أنك عن قريب صائر الى ما صار اليه ، وقادم على ما قدم عليه ، فان العبد بينما هو يمرح فى أمنيته ، غافلا عن يوم مصرعه ، اذ هجمت عليه المنية فهتكت استاره ، وكسفت أنواره ، وطمست أعلامه وآثاره ، فاخرجته من قصر مشيد ، وبيت حميد ، مزخرف نضيد ، الى حفرة من الارض كحفرة أخيه أو ولده أو غيرهما ، مظلمة

ضيقة الجوانب ، مملوءة من الرعب والفزع ، فاما هي روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار ، أعاذنا الله منها . قيل لبعض الزهاد : ما ابلغ الموعظة ؟ قال : النظر فى محلة الاموات ، فاذا كانت القبور النظر اليها موعظة، وهى أول منازل الآخرة وعبرة لاهل الدنيا ، فلا ينبغى التزين ولا التزخرف ولا مايفعله غالب الاغنياء من الامراء والتجار وغيرهم ،من ضرب الخام والخيام وغيرهما فى الترب ، ووضع البسط والفرش تحت ذلك وينامون عليها ، واخوانهم تحت ذلك على التراب فى حفرة ضيقة مظلمة ، فاى موعظة تعظ هؤلاء بموتاهم ؟ بل هذه غفلة نسأل الله تعالى السلامة منها

﴿ فصل ﴾

وكان عثمان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنار ولا تبكى ، وتبكى من هذا ؟ فقال : إن رسول الله ﷺ . قال : « إن القبر أول منازل الآخرة فان نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه » وروى الترمذى فى جامعه أن النبى ﷺ . قال : « ما رأيت منظرا الا والقبر أفظع منه» وروى الترمذى أيضا من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه . قال : دخل رسول الله ﷺ مصلاه فرأى ناسا كانهم يكتشرون ، فقال : « أما إنكم لو أكثرتم ذكر هاذم اللذات ـ يعنى الموت ـ لشغلكم عما أرى فأكثروا ذكر هاذم اللذات الموت فانه لم يأت على القبر يوم الا تكلم فيه فيقول: أنا بيت الغربة وأنا بيت الوحدة وأنا بيت التراب وأنا بيت الدود ،فاذا دفن العبد المؤمن قال له القبر : مرحبا وأهلا أما إن كنت لأحب من مشى على ظهرى الى فاذا وليتك اليوم وصرت الى فسترى صنيعى بك . قال : فيتسع له مد بصره ويفتح له باب الى الجنة ،وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر قال له القبر: لا مرحبا ولا أهلا أما إن كنت لأبغض من يمشى على ظهرى الى فاذا وليتك اليوم فسترى صنيعى بك فيلتئم عليه حتى يلتقى عليه وتختلف اضلاعه . قال : رسول الله ﷺ باصابعه

فادخل بعضها فى بعض . قال : ويقيض له سبعين تنينا لو أن واحدا منها نفخ فى الأرض ماأنبتت شيأ مابقيت الدنيا فينهشنه ويخدشنه حتى يفضى به الى الحساب قال رسول الله ﷺ إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » وروى الحاكم فى كتاب الكنى، والقاسم بن أصبغ من حديث ابى الحجاج الثمالى قال قال رسول الله ﷺ : « يقول القبر للميت اذا وضع فيه ، ويحك يا ابن آدم ماغرك بى ؟ألم تعلم أنى بيت الفتنة و بيت الظلمة و بيت الوحدة و بيت الدود ،ماغرك بى يا ابن آدم فان كان مصلحا أجاب عنه مجيب القبر فيقول أرأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيقول القبر إنى أعود عليه خضرا ويعود جسمه نورا وتصعد روحه الى رب العالمين »

وقال مجاهد : أول ما يكلم ابن آدم حفرته تقول : أنا بيت الدود و بيت الوحدة و بيت الوحشة ، و بيت الظلمة و بيت الغربة، هذا ما أعددت لك يا ابن آدم فما أعددت لى ؟ وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: الا أخبركم بيوم فقرى ، يوم أدخل قبرى * وكان جعفر الصادق رضى الله عنه يأتى القبور ليلا ويقول : يا أهل القبور مالى إذا دعوتكم لاتجيبون ؟ ثم يقول : حيل والله بينهم و بين الجواب ، وكانى أكون مثلهم ،وأدخل فى جملتهم ثم يستقبل القبلة حتى طلوع الفجر .

وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه لبعض جلسائه :يافلان لقد أرقت الباوحة تفكرا فى القبر وساكنه ،إنك لو رأيت الميت بعد ثلاث ليال فى قبره لاستوحشت منه بعد طول الأنس به ، ولرأيت بيتا تجول الهوام فيه ، ويجرى فيه الصديد ، وتخرقه الديدان ، مع تغير الريح وتقطع الاكفان ،وكان ذلك بعد حسن الهيئة وطيب الريح ، ونقاء الثوب ، ثم شهق شهقة خر مغشياً عليه *

وقال بعض الحكماء : أربعة أبحر لأربع ، الموت بحر الحياة ، والنفس بحر الشهوات ، والقبر بحر الندامات ، وعفو الله بحر الخطيئات . فنسأل الله العظيم أن

يجعل القبر خير بيت تعمره وتسكنه !

﴿ فصل ﴾

واعلم أنه لو دخل شخص الى المقابر المزخرفة لميز السعيد من الشقى ما علم هذا من هذا ، وما يعلمه الا علام الغيوب ، بل قد يكون قبراً من القبور قد درست أعلامه ، وقد بقى ممشى للدواب ، وصاحبه فى أعلا الجنان ، وقد يكون قبرا مزخرفا وقد علیت عليه القباب والبشخانات الحرير وصاحبه فى نار جهنم ، بل تقول لو دخل شخص المقابر لم يميز قبر الذكر من الانثى ، ولا الشيخ من الشاب ، ولا الحر من العبد ، فاذا كان هذا التميز الذى يمكن الشخص العاقل أن يميز بين هؤلاء فى الحياة الدنيا قد أبهم علينا بعد الموت ، فكيف نميز السعيد من الشقى ؟ ويشبه هذا ما روى أن الاسكندر مر بمدينة قد ملكها عدة ملوك وبادوا : فقال الاسكندر ، هل بقى من نسل أولئك الملوك أحد ؟ فقيل له : مابقى منهم الا رجل واحد يأوى المقابر ، فدعا به فلما أحضره قال له : ماحملك على لزوم المقابر ؟ قال : أردت أن أميز عظام الملوك من عظام عبيدهم فوجدت الكل سواء . قال له الاسكندر : هل لك أن تتبعنى فأجيز لك بشرف أبائك إن كانت لك همة عظمية؟ فقال : إن لى همة عظيمة بشرط إن كانت بغيتى عندك تبعتك . قال : ومابغيتك ؟ قال : حياة لاموت فيها ، وشباب ليس معه هرم ، وغناء ليس معه فقر ، وسرور ليس معه حزن . قال الاسكندر : أليس ذلك عندى ولا بيدى ، فقال : أى خير أرجوه عندك إن لم يكن عندك هذه الاشياء ؟ فامض لشأنك ودعنى أطلب ذلك ممن يملكه وهو عنده . ثم عاد الى مكانه ولم يلتفت الى الاسكندر * وكان عطاء السليمى رحمه الله إذا جن الليل خرج الى المقابر فيقول : ياأهل القبور متم فوا موتاه ، وعايتم أعمالكم فوا عملاه ، ثم يقول : غدا يكون عطاء فى القبور ، فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح * وقال سفيان الثورى : من أكثر من ذكر القبر وجده

روضة من رياض الجنة ، ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار * ومر على بن أبي طالب رضى الله عنه بالمقابر فوقف عليها قليلا فقال :السلام عليكم أهل الديار الموحشة ، والمحال المقفرة ، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع ، وبكم عما قليل لاحقون ، اللهم اغفر لنا ولهم ، وتجاوز عنا وعنهم ، طوبى لمن ذكر المعاد ، وعمل للحساب ، وقنع بالكفاف ، ورضى فى جميع أحواله عن الله تعالى . ثم قال : ياأهل القبور أما الزوجات فقد نكحت ، وأما الديار فقد سكنت ، وأما الأموال فقد قسمت ، هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم ؟ ثم التفت الى اصحابه فقال : أما إنهم لو تكلموا لقالوا : وجدنا خير الزاد التقوى * ويروى أن رجلا دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فرآه قد تغير من كثرة العبادة ، فجعل يتعجب من تغير لونه واستحالة صفته ، فقال له عمر :يا ابن أخي وما تعجبك منى ؟ فكيف لو رأيتنى بعد دخولى قبرى بثلاث ؟ وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدين ، وتقطعت الشفتان ، وتقلصت عن الاسنان ، وخرج الصديد والدود من المنخرين والفم ، وانتفخ البطن فعلا على الصدر ، لو رأيت إذ ذاك منى فهو أعجب مما رأيته الان * واعلم رحمك الله أنه من علم مصيره الى هذه الحفرة المظلمة الموحشة لم يبالغ فى تحسين ظاهرها ، مع علمه بما يؤول صاحبها اليه ؛ مع ترافة جسمه ، وحسن منظره ، ولين بدنه ، فانه عن قريب سيطرح فى حفرة تتقطع فيها أوصاله ، وتتغير فيها أحواله ،ثم ينتن بعد ذلك ويفر من رائحته من كان عنده من أحب الناس اليه إذ اطلع عليها ، فاذا نظر العبد بعين بصره و بصيرته الى قبور المترفين من أهل الدنياكانهم لم يشاركوا أهل الدنيا أبدا فى لذاتهم وطيب عيشهم ، هم والله صرعى قد حلت بهم المثلات ، واستحكم فيهم البلاء ، وأصابت الهوام فى أجسادهم ، فأطيبهم وأنعمهم من قد أمن من عذاب الله عز وجل . قال ثابت البنانى : دخلت المقابر فلما أردت الخروج منها إذا أنا بصوت يقول : ياثابت لا يغرنك

صموت أهلها فكم من نفس معذبة فيها *

﴿ الباب الخامس والعشرون ﴾

(فى أن الله يثبت الذين آمنوا عند المسائلة)

قال الله تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) . قال أكثر المفسرين : هى كلمة التوحيد . وهي قول لا إله إلا الله فى الحياة الدنيا ـ يعنى قبل الموت ـ وفى الآخرة ـ يعنى فى القبر ـ وذهب بعض المفسرين الى أن قال : فى الحياة الدنيا فى القبر عند السؤال ، وفى الآخرة عند البعث ، والأول أصح * عن البراء بن عازب رضى الله أن رسول الله ﷺ قال : « المسلم اذا سئل فى قبره فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قول الله تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) وفى لفظ نزلت فى عذاب القبر . يقال له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله ونبى محمد ، وذلك قول الله : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) الآية * رواه البخارى ومسلم ، ورواه الامام أحمد مطولا ، وأهل السنن والمسانيد * ورواه الامام أبو داود فى سننه بأتم من هذا من حديث البراء أيضاً ولفظه . قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا الى القبر ولم يلحد ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كانما على رؤسنا الطير ، وفى يده عود ينكت به الأرض ، فرفع رأسه وقال : « استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثاً » وذكر صفة قبض الروح وعروجها الى السماء ، ثم عودها اليه الى أن قال : « وإنه ليسمع خفق نعالهم اذا ولوا مدبرين حين يقال له : ياهذا من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ » وفى لفظ « فيأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له : ما دينك ؟ فيقول : دينى الاسلام ، فيقولان : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ قال :